7

قل: «نحن»

قال عازف الأرغن للرجل الذي كان يضخُّ الهواء يدويًّا في الآلة من وراء الكواليس في أثناء تقديم حفلة موسيقية: « إن الجمهور يحبُّني».

في بداية القرن الماضي، وقبل اختراع الأرغن الكهربائي، شاع لونٌ شعبي من التسلية هو حضور حفلات عزف على آلة الأرغن يؤديها عازفون معروفون. فحينما يؤدي عازف الأرغن مقطوعته، يبدأ شخصٌ مستأجَر من خلف الستارة بضخِّ الهواء قدر استطاعته. ومن غير بذْل هذه «الطاقة المرهِقة» لا يمكن أن تُصْدر الآلةُ الأصوات.

في فيلادلفيا، وبعد أن قدَّم قائد فرقةٍ موسيقيةٍ أداءه الرائع، وقف الحضور تحيةً لعازف الأرغن عندما انتهى من مقطوعته الأخيرة قبل الاستراحة.

وبعد أن انحنى عازف الأرغن للجمهور، اندفع مسرعًا إلى خلف الستارة وتحدَّث إلى الرجل الذي كان يضخُّ الهواء في آلة النفخ بكلتا قدميه، وقال: «لقد أحبَّني الجمهور في الخارج».

فأجابه الرجل الذي كان يضخُّ ويضخُّ حتى الإعياء: «ماذا تعني؟ لا شك أنك تريد أن تقول: لقد أحبَّنا الجمهور في الخارج؛ فلا تنسَ أنك من دوني لا تستطيع أن تقيم حفلة موسيقية».

سخـط عازفُ الأرغن من سـماع ذلـك، وقال بتكبُّـر: «لا، لقد أحبوني. فقد عرفوا موهبتي عندما سمعوا أدائي!»

وبعد الاستراحة، توجَّه العازف إلى الأرغن وهو يختال في مِشْيته، وأخذ مكانـه من الآلـة الموسيقية، واستعـدَّ لأداء النصف الثـاني من المقطوعة وهـو الجزء الأهمُّ منها. رفـع ذراعيه، وبعد توقُّفٍ مثير ضغطتْ يداه على مفاتيح الأرغن.

لم يحدث شيء!

توقَّـفَ لحظةً، وحاولَ ثانيـة ولكن دون جدوى، فالصـوت لا يخرج من هذه الآلـة الجبَّارة. وبعد المحاولـة المربكة الثالثة، نظر حـول الأرغن إلى زاويـة المنصة، فراعَهُ أن رأى الرجلَ الذي يضخّ الهواء وقد طلع من جانب الستارة، وهو يبتسم.

ثم قال للعازف: «قل نحن!». أعاد هذه العبارة مرتَيْن.

نحن الشعب:

إن ما حصـل على منصة الحفلة الموسيقية يُعَـدّ درسًا يجب أن نتعلَّمه ونعاود تعلُّمه مراتٍ ومرات. إذ من المستحيل فعليًّا أن تصبح قائدًا أو معلِّمًا في أيِّ شيءٍ وحدك دون مساعدة الآخرين.

- المديـر التنفيذي الأعلى في شركة فورد للمحركات أراد في النهاية أن يواجه الإخفاق دون دعم أحد؛ لا من المديرين، ولا من كبار العمال، ولا من عمال خطوط الإنتاج.

- أفضل لاعبي كرة القدم المحترفين لا يمكنه الفوز بمباراة سوبر بول* وحده دون مساعدة الآخرين؛ فهو يعتمد كليًّا على اللعب الجماعي للفريق.

- يعتمد نجاحُ نجمٍ سينمائيٍّ شهيرٍ على مئاتِ الأشخاص، بدءًا من كتّاب النصوص وانتهاءً بمختصِّي المكياج.

- القادةُ العسكريون يَضعون أوسمتهم على صدورهم، ولكنهم مَدينون لمئات المقاتلين الشجعان من الرجال والنساء.

وأمثال هؤلاء المذكورين في هذه القائمة كثيرون.

وماذا عن نجاح أمتنا؟ هل نستطيع أن نعتمد على رئيسٍ قوي يقود شعبه وحده؟ لا، بل يقال:

«نحن الشعب»

الذين نجعل الديمقراطية تسود.

لقد قال توماس جيفرسن**: «إن إرادة الشعب هي الأساس الشرعي الوحيد لأي حكومة». ولقيتْ هذه الفكرة صداها لدى جون كينيدي***: «لا يوجد مصدر للقوة أكبر من شعب الولايات المتحدة: في الشجاعة والمثابرة وبعد النظر».

---

* Super Bowl لعبة كرة قدم في الولايات المتحدة، تقام مرةً في السنة (يوم الأحد من نهاية كانون الثاني). أقيمتْ أول مرة في سنة 1967، ويشاهدها الملايين عبر شاشات التلفاز. (المترجم).

** Thomas Jefferson (1743-1826) الرئيس الثالث للولايات المتحدة (1801-1809). (المترجم).

*** John Kennedy (1917-1963) الرئيس الثالث والخمسون للولايات المتحدة (1961-1963). (المترجم).

ذكرنا آنفًا إحدى مفارقات المجتمع الأمريكي: فنظامنا الحرُّ والمنفتح والديمقراطي يولِّد بالطبع أشخاصًا مبدعين. ولكن مدارسنا وأماكن عملنا الاستبدادية والمتسلِّطة والتنافسية تكافئ الناس بمهارات منطقية وتحليلية.

فنحن بوصفنا أمة نواجه تحدِّيًا كبيرًا. ولكي نتنافس مع مجتمعاتٍ أخرى، نحتاج إلى أن نسخِّر كلَّ ما لدينا من المخزون الإبداعي الهائل الموجود لدى أفراد أمتنا.

لما كان الأشخاص المبدعون يؤدون أعمالهم
على أكمل وجه في بيئاتٍ مفتوحة وديمقراطية،
فنحن بحاجة إلى تهيئة مناخٍ من التعاون
في التعليم والسياسة والعمل.

قد تقول: «مهلاً يا تشارلز، ولكن أليست الرأسمالية تنمو وتزدهر بوجهٍ أفضل في ظل التنافس؟ ألا تتطلَّب عددًا من الأوامر الاستبدادية؟ ثم كيف يمكن أن تُساس أمورُ جمعيةٍ تعاونية إذا كان كلُّ فردٍ فيها يعمل وكأنه رئيس العمل؟»

لقد تعلَّمتُ جزءاً من الجواب من آلان ريان أستاذ السياسة في جامعة برنستون، الذي كان يتحدَّث عن إدارة العمل والحكومة إلى طلبة كلية السياسة العامة والإدارة التابعة لجامعة ولاية أوهايو. كانت فكرة محاضرته أن «المشاركة عنصر حاسم في الرأسمالية».

يعتقد ريان أنك إذا أدرتَ مشروعًا على أنه مجرَّد نظامٍ حافزُه الوحيد هو الربح، انتهى بك الأمر إلى تكريس مجموعةٍ من الانتهازيين غير

المنتجين، و«آل النظام برمَّته إلى البوار السريع». ويقول ريان: «إذا لم تستطعْ ضبط المواطن، فلن تستطيع تحقيق الرأسمالية أيضاً».

ويؤكِّد ريان أن الرأسمالية لا تعمل بوجهها الصحيح، ما لم يكن للمواطن مشاركة فاعلة. فإذا ما تجاهلنا دور المواطن وأصبح «السوق» هو الحكَم الفيصل، وجدنا أنفسنا أمام نظام استبداديٍّ قاسٍ.

إن بيئتنا الوطنية تُنتِج مواطنين مبدعين مستعدِّين لوضع مواهبهم وقدراتهم وأفكارهم تحت تصرف النظام الاقتصادي، إذا كان هذا النظام مهيَّأً للاستفادة منها.

على أن الحكومات الاستبدادية لا تمتلك هذه الموارد الغنية، فبيئاتهم السياسية والاجتماعية تُنتِج مواطنين «مفكِّرين منطقيين» يُحْسنون تطبيق الأفكار، ولكنهم أقلُّ تدبيرًا وقدرةً على توليدها. فإذا لم تمتلكْ أفكارًا قابلةً للتنفيذ، فلن تحُرز تقدُّمًا.

الثقافة الملتزمة:

أمضيتُ سبع سنوات أعمل في شركات يابانية ودول آسيوية أخرى بصفتي خبيرًا من قسم التنمية الاقتصادية في ولاية أوهايو. وقد كان تفاعلي مع عددٍ كبير من ممثِّلي الشركات بنَّاءً ومكَّنَتني زيارتي الطويلة لشركة صنع الفولاذ في مدينة ناغويا في اليابان من الوقوف على ثقافتهم.

قادتني ملاحظاتي إلى استنتاجٍ مفادُه: إذا كان الشعب يعيش في كَنَف ديمقراطية سياسية، فإن ثقافته تكون مسيطرة بصرامة. وفي الواقع، إذا ألقيتَ نظرةً عن قُرْب إلى اليابان، فستجد مجتمعًا ملتزمًا. والنتيجةُ هي

منتجـاتٌ وخدماتٌ ذات جودةٍ عالمية ورغبةٌ ذاتيةٌ لدى الأفراد لأداء أفضل ما لديهم. ويلفتك مدى إخلاصهم الشديد لمؤسساتهم وانتماؤهم اللصيق بها، وأن الثقافة الأوتوقراطية تعمل لمصلحتهم.

ومـع ذلـك، فهناك فـرقٌ جوهري جديـرٌ بالذكـر؛ وهـو أن اليابانيين يطوِّرون شركاتهـم لمصلحة موظَّفيهم، على حين أن الشركات في الولايات المتحدة تعمل لمصلحة مالكي الأسهم.

فاليابانيون شأنهم شأن كثيرٍ من دول المحيط الهادئ الآسيوية (ومنها الهنـد والصين وإندونيسيـا...) أناسٌ مفكِّـرون منطقيُّون، وهـم النُّخبة في عـالَم الاقتصـاد، بـل هـم الـروَّاد في صناعـة السيـارات والحواسيب والإلكترونيات وغيرها من الفعاليات التصنيعية والخدمية.

غير أن كثـيرًا من الدول الآسيوية، كما أشـار المراقبون البارزون، لم تكـن قادرة على العيش من دون أمريـكا. إذ إن هذه الدول استطاعت أن تحقِّـق النجاحَ عـن طريق الاستفادة مـن عددٍ من الأفـكار المبدعة التي ربمـا سبق أن قُدِّمتْ في أماكن أخرى. فالمجتمع الصناعي الآسيوي صَقَل عددًا مـن الأفكار التي تولّدَتْ لدى الأمريكيـين والأوربيين، وصُدِّرَتْ إلى المبتكرين الآسيويين.

إن حلَّ المشكلات،

وترجمة الأفكار إلى واقع ملموس

رهنٌ بأن يعمل المبدعون والمنطقيون يدًا واحدة.

فالمبدع المفكِّر يبتكر فكرةً عظيمة، ولكنْ قبل أن تتحوَّل إلى واقعٍ ملموس يضعها المبتكر (أي المبدع المفكِّر) جانبًا وينتقل إلى مشروع آخر. أما المفكِّر

المنطقي فلديه مجموعة أفكار، ولكنه يعمل على تطبيق معظمها بلا توقُّف. فالأشخاص الذين يَتَّصفون بمثل هذه الكيفية من التفكير ـ كشعوب دول المحيط الهادئ الآسيوية ـ ينتفعون عن طريق استغلال أفكار المفكِّرين المبدعين «المبتكرين».

قد تمتلك الولايات المتحدة أفضليةً على دول المحيط الهادئ؛ لأن شعبها لديه الكثير من الآمال والأحلام، ولكن عندما يتعلَّق الأمر «بالعاملين»، فإن الدول الآسيوية تفوق الأمريكيين عددًا بمراحل كثيرة.

وكما يعلم الجميع، فإن النجاح يتحقَّق بالعمل، لا بالأمل. وقد اكتشفتْ الدولُ الآسيوية هذه الحقيقة، وصارت تستفيد من تحويل كثيرٍ من آمال الأمريكيين وأحلامهم إلى واقع ملموس.

المكان متسع!

أدرك اليابانيون أن مراعاة القواعد هي أفضل وسيلة للتقدُّم في جزيرةٍ مكتظة. ولو أنك جَمَعْتَ نصف سكان الولايات المتحدة في ولاية مونتانا*، لحصلتَ على كثافة سكانية يمكن مقارنتها مع الكثافة السكانية في اليابان، ومع ذلك تظلّ مونتانا أكثر قابلية لاستغلال أرضها. وفي ظلِّ هذا الضغط السكاني إما أن يَستحدِثَ الناسُ قوانينَ صارمةً للسلوك على الجميع أن يكيِّفوا حياتهم وفقها، وإما أن تعمَّ الفوضى. أما الولايات المتحدة ففيها، من جهة أخرى، كثافةٌ سكانية مرتفعة، ولكن مازال فيها مساحات شاسعة من الأراضي غير المستعملة.

* Montana ولايةٌ تقع في الشمال الغربي من الولايات المتحدة، وهي الولاية الرابعة من حيث المساحة، ومن أقل الولايات الأمريكية في عدد السكان. (المترجم)

قبل قرنين من الزمن، نظر دانيال بون* من نافذة كوخه
فرأى دخانًا يتصاعد من مدخنة أحد جيرانه،
فصاح بأعلى صوته: «المكان متسع» ومضى.

لم يعترض جيران دانيال العجوز عليه عندما ثبَّتَ جلود حيوان الراكون إلى جانب كوخه؛ فهم غير مجاورين له تمامًا حتى يرونه. ولا يبالون إذا أبقى أغنامه داخل الحظيرة خلف الكوخ؛ فهم غير مجاورين له تمامًا حتى يشمُّوا رائحتها. ولا يكترثون إذا ألحقَ كوخًا صغيرًا بكوخه، بحيث تستطيع حماته (والدة زوجته) أن تمتلك مأوى منفصلاً خاصًّا بها؛ فهذه مسألةٌ تتعلَّق بدانيال وحده.

حتى إن هؤلاء الجيران لا يتذمَّرون عندما يعزف دانيال على كَمَانِهِ بصوتٍ مرتفع، فصوت موسيقا الكَمان لا ينتقل عبر التلال ولا عبر المنخفضات.

وبالطبع، يعلم دانيال أنه إذا اشتعل كوخه، فليس ثمة غيره وعائلته مَنْ يطفئ النيران؛ وأنه إذا حاولتْ عصابةٌ من الهنود سرقة حصانه، فسيعمل على طردهم؛ وأنه إذا التمس مسلكًا من كوخه إلى أقرب تجمع سكني، كان هو أول مَن يَروده؛ وأنه إذا سقط من منحدر صخري وكُسرتْ رجله، فسيضطر إلى التحامل على نفسه في الوصول إلى الكوخ وأن يُجَبِّر الكسر بمساعدة زوجته بيكي؛ وأنه إذا كان الصيد قليلاً أو أنه غير قادر على الصيد، فإنه يقتات على الأعشاب البرية والبزور وتوت العلَّيق أو أن يبقى جائعًا. فمثل هذه الظروف تولِّد أفرادًا مستقلِّين ومبدعين.

---

* Daniel Boone (1734-1820) من أوائل الأمريكيين البيض الذين هاجروا إلى ولاية كينتاكي، وبدأ ببناء مدينةٍ فيها. (المترجم)

عمَّ ندافع؟

لقد مرَّ زمنٌ طويل على أيام دانيال بون. فلدينا الآن أراضٍ مقسَّمة، وبيوت وشقق في المدينة، ومجمَّعات سكنية. ولدينا أيضًا قوانينُ محلِّية، وقيودٌ على الأبنية، وقوانين لمنع الضجيج، وغيرها من الأنظمة المتنوعة. وهناك مديريات الإطفاء، وأقسام الشرطة، وفرق الإنقاذ، وإدارات الطرق العامة. ولدينا تعويضات العمال، ورواتب العاطلين عن العمل، والرفاهية، والضمان الاجتماعي، والرعاية الصحية، والمساعدات الطبية، هذا إضافة إلى شركة الضمان الطبية الأمريكية بلو كروس، وبلو شيلد.

وقد طوَّرنا ما يَقِينا من الكوارث، وعندما نجتمع في مناطق شديدة الاكتظاظ، فلدينا قوانين تنظِّم حياتنا. ولدينا أيضًا حرِّيةٌ في المبادلات التجارية تجري بصورة أمينة.

ومع ذلك، فمانزال في قلوبنا وأرواحنا شعبًا مؤلَّفًا من أفراد مستقلين. فإذا نظرت إلى تَجَمُّعٍ في اليابان، وجدتَ يابانيين فقط، أما إذا نظرت إلى تَجَمُّعٍ في الولايات المتحدة، وجدتَ أنغلوسكسونيين، وأفارقة أمريكيين، وإسبانيين، وآسيويين، ويهودًا، وعربًا، وإيطاليين، وسلافيين، تشكيلة عرقية وعنصرية متنوعة.

نحن نعيش في الولايات المتحدة في ظلِّ حكم دستورٍ فيدرالي، ولكن لدينا أيضًا عددًا من الدساتير المحلية يساوي عدد الولايات، وهي تمنح درجاتٍ متفاوتةً من الحكم الذاتي لحكومات الولايات ومُدُنِها. ونحن نحترم مئات من الديانات المختلفة. ومع أنه لا يوجد لدينا سوى حزبَيْنِ سياسيين رئيسين، فإنهما ـ خلافًا لنظائرهما في الدول الأوربية

الديمقراطية ــ لا يطلبان موالاةً صارمة لمبادئهما. فالحزب الديمقراطي يحتضن المحافظين في ولاية الميسيسبي، إضافة إلى الليبراليين في ولاية ماساتشوستس. وكذلك فإن الحزب الجمهوري يرحِّب بالمحافظين في ولاية آيرزونا، إضافةً إلى الليبراليين في ولاية كنيتكت.

الوثيقة التي تحدِّد طابعنا الوطني

ليست قانونًا مقيِّدًا،

بل ميثاقًا محرِّرًا.

فميثاق الحقوق لا يحدِّد للمواطن ماذا يجب عليه أن يفعل، بل ينبِّه الحكومة على ما يمكن أن تعمل. صحيحٌ أننا نجادل ونناقش بلا توقُّف في الأمور التي تقع بين سطور تلك الوثيقة، ولكننا مستعدُّون للدفاع عنها بكلِّيتها.

فعن أي شيءٍ ندافع إذاً؟ عن أمةٍ تكمن قوَّتها العظمى في شعبٍ يعمل أفراده معًا.

وفي أمريكا، يتلخَّص النجاح بكلمتَيْن: قلْ «نحن!».